العرب
الخميس 2020/10/29
السنة 43 العدد 11865

العالم يحبس أنفاسه في انتظار دخان البيت الأبيض

مرح البقاعي
كاتبة سورية أميركية

أعادت المناظرة الرئاسية الثالثة والأخيرة بين مرشحي الحزب الديمقراطي الأميركي، جو بايدن، ومرشح الحزب الجمهوري الرئيس الحالي، دونالد ترامب، الثقة إلى حملة ترامب ومناصريه بعد أن أبلى الأخير بلاء حسنا، متفوّقا على منافسه بايدن في العديد من النقاط برأي الإعلام النصير للديمقراطيين واليسار الأميركي، وليس بتقديرات الإعلام الذي يقع في الضفة الأخرى اليمينية وحسب.

قولنا إن الانتخابات الأميركية تعتريها المفاجآت دائما والاحتمالات قائمة باستمرار في الخسارة والربح ليس إفشاء لأسرار، فهذه انتخابات ديمقراطية عالية الشفافية وأي خلل فيها يضرب الديمقراطية الأميركية ضربة موجعة

وبينما فشل بايدن في الدفاع عن نفسه في سياق الاتهامات الموثقة التي ساقها ترامب خلال المناظرة، وكان أخطرها تهمة استغلاله المنصب حين كان نائبا للرئيس السابق باراك أوباما لدعم أعمال ابنه، هانتر بايدن، في صفقات تجارية ضخمة مع أوكرانيا وموسكو، إلى وعوده الانتخابية لجهة إصلاح نظام الدعم الصحي لمن لا يملكون تأمينا صحيا، التي لم يستطع أن يحقّق منها شيئا خلال وجوده في البيت الأبيض لمدة ثمانية أعوام قبل وصول ترامب إلى الحكم.

وذكّر ترامب بتصريح بايدن الجدلي بإنهاء عمليات التنقيب عن الغاز الطبيعي والنفط على الأراضي الأميركية، بما يهدّد مستقبل عائلات بأسرها تعيش على دخلها من العمل في قطاع التنقيب، عدا عن تهديد ذلك للاكتفاء الذاتي الذي حققته أميركا في مصادر الطاقة، والذي يعتبر أمرا يمسّ أمنها الاقتصادي، الذي لا يفترق عن أمنها القومي، وانتهاء بمشهد بايدن نائيا بنفسه عن النصير الوحيد الذي كان بإمكانه الاعتماد على شعبيته للفوز بمقعد الرئاسة، وهو الرئيس السابق أوباما، حين عزا إليه الفشل في إصلاح قانون الهجرة الذي واجهه به ترامب خلال المناظرة، وهو مشروع استراتيجي وحيوي يقع في صلب الحياة السياسية الأميركية.

في ظل هذه التطورات الأخيرة، بدأت وسائل الإعلام تشير إلى إمكانية فوز ترامب من خلال "المجمع الانتخابي" مع احتمال الخسارة لصالح بايدن بفارق ضئيل في التصويت الشعبي. وهو سيناريو يتّسق مع انتخابات 2016 حين خسرت هيلاري كلينتون أمام ترامب. وها هو ترامب، إثر المناظرة، يتنقل بطائرته الرئاسية بين الولايات المتأرجحة ليضمن أصوات المجمع الانتخابي لصالحه، بينما يختفي بايدن ولا يبدي أي حماس لمعاودة الزخم إلى حملته وكأنه مطمئن لحتمية الفوز وقد وضعه "في جيبه" كما نقول بلهجة أهل الشام.

لن نفشي سرّاً لو قلنا إن الانتخابات الأميركية تعتريها المفاجآت دائما، والاحتمالات قائمة باستمرار في الخسارة والربح مهما توفرت الأسباب اللازمة لحسم النتيجة. فهذه انتخابات ديمقراطية عالية الشفافية تمتاز بها أميركا منذ قيامها على يد الآباء المؤسسين الأوائل، وأي خلل يشوب نزاهة ومصداقية العملية الانتخابية إنما يضرب الديمقراطية الأميركية ضربة موجعة قد تصل ارتداداتها إلى مفاصل البيت السياسي الأميركي لتصيبه بأزمة حقيقية. لذا تحرص هيئة الانتخابات الأميركية المشرفة على المتابعة والتدقيق والرقابة من أجل صون وحماية هذه العملية الدستورية الأعلى أهمية في الحياة الأميركية.

إلا أنه لا بد لنا من ذكر ما يميّز ترامب ويجعله أوفر حظا للفوز بفترة رئاسية ثانية: على صعيد الداخل الأميركي، حقق الرئيس ترامب خلال أربع سنوات قفزة اقتصادية غير مسبوقة، عزّزها باستعادة شركات كبرى أميركية للعمل في الداخل الأميركي، وخلق فرص عمل للأميركيين كانت تذهب للعمالة الخارجية، وهذا ما أدى إلى انخفاض مستوى البطالة في الولايات المتحدة – قبيل وصول الجائحة العالمية – بمعدل لم تشهده البلاد منذ الكساد الكبير في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي.

أما على صعيد الجيش والعمليات الحربية، فقد حقق ترامب وعوده لعائلات أفراد الجيش الأميركي بإعادتهم إلى بلادهم والانسحاب من الحروب والعسكرة في المناطق الساخنة في غير مكان من العالم يتعرض فيه المقاتل الأميركي للأخطار، بينما استعاض عن التواجد العسكري الميداني بسياسة الضغوط والعقوبات على الدول التي تشكّل تهديدا للأمن القومي الأميركي أو لحقوق الإنسان والاستقرار العالمي، وخير مثال على ذلك عقوبات "قانون قيصر" على النظام السوري، والعقوبات المتصاعدة على روسيا وإيران والصين.

وفي مجال استعادة السلام في المنطقة الأكثر سخونة في العالم، تمكّن ترامب بواسطة الدبلوماسية النشطة من إنجاز اختراق دبلوماسي غير مسبوق في إبرام معاهدات سلام بين إسرائيل وثلاث دول عربية آخرها كان السودان الذي كانت عاصمته الخرطوم قد أطلقت في العام 1967 لاءاتها الثلاث: لا للصلح، لا للتطبيع، لا للاعتراف بإسرائيل.

أما إنجازاته الحربية فقد ساهمت – دونما إراقة دماء جنوده – في إنهاء شرور قطبي الإرهاب في الشرق الأوسط والعالم، حين أمر بشن غارة نوعية قضت على مؤسس تنظيم داعش، أبوبكر البغدادي، مستهدفة معسكره في ريف إدلب السوري، تلته تصفية مهندس عمليات الميليشيات الإيرانية العابرة للحدود، قاسم سليماني، بقصف سيارته على طريق مطار بغداد عائدا من دمشق، بصاروخ ذكي تم توجيهه من قاعدة عسكرية تقع في صحراء نيفادا الأميركية.

وقد ترافقت تلك العمليات النوعية مع إنهاء تنظيم داعش تماما بالشراكة مع الأكراد السوريين في شرق الفرات، وبتشديد العقوبات على دولة الملالي في إيران، وعلى شخصيات فاعلة وصلت إلى عقوبات فُرضت أخيرا على سفيرها في العراق، بهدف الضغط على حكومة طهران لوقف دعمها للفوضى وإثارة الفتن في هذا البلد الذي يقع في القلب من نزعة التغوّل الإيراني على المنطقة وأهلها.

بقيت أيام على توجه الناخب الأميركي رسميا إلى صناديق الاقتراع في 3 نوفمبر القادم، علما وأن ما يزيد على 50 مليون أميركي قد أدلوا بأصواتهم بشكل مبكّر، ومنهم الرئيس ترامب الذي أدلى بصوته في ولاية فلوريدا يوم الأحد 24 أكتوبر، أي قبل تسعة أيام من اليوم الانتخابي الرسمي. إلا أن نتائج الانتخابات لن تعلن في اليوم عينه نظرا للجوء الملايين – وأنا واحدة منهم – للتصويت عبر البريد بسبب ظروف الاحتراز القصوى والعزل الاختياري الذي يتخذه البعض اتقاء للإصابة بفايروس كورونا.

وإلى حين إعلان الفائز بالرئاسة الأميركية للأربع سنوات القادمة ستبقى أميركا تقف على قدم واحدة، ويقف العالم معها، بانتظار ظهور "الدخان الأبيض"، وقد بدت انتخابات 2020 وكأنها اقتراع على رئاسة العالم.

إنهم يخدعون الانتفاضة

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من الكلام المكرر أنّ انتفاضة تشرين، منذ اندلاعها في العام الماضي، خسرت سبعمئة شهيد من شبابها، وآلاف المعتقلين والمخطوفين من نشطائها، وهي خسارة فادحة دون ريب، وبكل المقاييس.

ولكن خسارة أحزاب السلطة الإيرانية في العراق كانت أضعافا مضاعفة تكبّدتها في محاولاتها إرهاب شباب الانتفاضة، أو على الأقل إفراغها من أي مضمون ثوري حقيقي يؤدي إلى قلب موازين اللعبة من أساسها.

إذا ما عدنا بالذاكرة إلى مثل هذه الأيام من العام الماضي فسوف يتبيّن حجم التضحيات التي تكبدتها السلطة وميليشياتها وهي تستخدم العنف الدموي، بكل أشكاله وأنواعه ودرجاته، من الكواتم إلى قنابل الدخان السام، وإلى الرصاص الحي.

وثابت، بالوقائع والأدلة أن مقابل كل ذلك العنف الذي استخدم لقمعها كانت الانتفاضة تتصاعد ويشتدُّ عودها ويرفع شبابها سقف مطالبهم ليصل إلى حد الهتاف، لا ضد الأحزاب الولائية الإيرانية، وحسب، بل ضد مخترعها ومالكها ومحركها الإيراني، نفسه، (إيران بره بره)، مع حرق قنصلياته في المحافظات ومعها مقار الأحزاب الحاكمة ذاتها.

خسارة أخرى. إن ذلك العنف لم ينتج عنه سوى اتساع النقمة الشعبية على الاحتلال الإيراني بين جماهير شيعية جديدة واسعة لم تشارك في الانتفاضة، من قبل، وكان الإيرانيون وأعوانهم العراقيون يعتبرونها ذخيرتهم التي يخبئونها لحماية نفوذهم في قادم الأيام.

ثم إن الخسارة الأكبر التي فوجئ الإيرانيون بها هي استفاقة الرأي العام الدولي ضدهم إلى الحد الذي راحت معه دول كبرى كانت ساكتة عن جرائمهم في العراق، من قبل، تندد بهم، وتدينهم بالجرم، وتهدّدهم بالعقوبات.

كما كان من ثمار سلوكهم الدموي ضد المتظاهرين السلميين أيضا أن اضطروا إلى التضحية برئيس وزرائهم عادل عبدالمهدي، والقبول، وهم صاغرون، برئيس وزراء جديد مكلف بمنافقة الشارع الغاضب، ولو بتصريحات يغمز فيها ما أسماه بـ"اللادولة"، وببضعة قرارات سطحية لا تمس العصب الإيراني الحساس الحقيقي، وبوعود عابرة يتعهد فيها بضبط سلاح الميليشيات، ومحاكمة الفاسدين، واستعادة سلطة القانون ولكن دون تنفيذ.

ولكن ذلك جعله، دون قصد، يزيد من عمق الهوة بين الجماهير الغاضبة وبين دولة السلاح المنفلت، ويضاعف حرج موقف داعمها الإيراني، ويمنح الانتفاضة قوة مضافة كفيلة بإعادة انطلاقها من جديد أشد قوة وأكثر شجاعة، وهو ما يحدث تماما هذه الأيام.

ومع عودة الانتفاضة إلى ساحات الثورة في تشرين الأول – أكتوبر الحالي، في جميع المحافظات المنتفضة، وخوفا من أن تتحول إلى ثورة شعبية فاعلة أكثر من انتفاضة العام الماضي، فقد لجأ الكاظمي، ومعه أحزاب السلطة وميليشياتها، إلى أسلوب المداهنة والنعومة المفتعلة وسياسة "العيني والأغاتي" معها، وأخذها بالأحضان، وتسيير قوات الجيش والشرطة، بحجة حمايتها، ولكن لضبطها ومنعها من الاتساع، وتحويلها إلى فقاعة عابرة مثلها مثل أي مسيرة من مسيرات اللطم التي اعتاد العراقيون عليها، دون اكتراث.

ولكن الحاكم الإيراني، وهو في مأزقه السياسية والاقتصادية والعسكرية المتصاعدة نتيجة العقوبات الأميركية الخانقة، أدرك أن قفازات الكاظمي المخملية التي يستخدمها لتبريد خواطر المنتفضين قد منحت انتفاضتهم الجديدة مشروعية، وجعلتها أخطر على احتلاله، وعلى مستقبل ذيوله، وهو ما جعله أقل صبرا على الانتفاضة، وأكثر ميلا إلى العودة إلى استخدام العنف لوقفها، ولكن بأسلوب جديد.

فقد دسّ بعضا من أنصاره داخل المنتفضين، وأمرهم بالاعتداء على قوات الجيش الحكومي والشرطة بالحجارة وقناني الغاز المشتعلة لإجبار السلطة، بمعاونة الميليشيات، على استخدام القوة ضد المنتفضين، لإخراج الانتفاضة من سلميتها، ولتبرير قمعها بالقوة بحجة الدفاع عن النفس.

تقول أجهزة إعلام الكاظمي إنه أشاد "بانضباط الأعداد الكبيرة من المتظاهرين، وبصبر قواته الأمنية (البطلة) على الجماعات المنفلتة والعصابات التي أرادت حرف التظاهرات عن مسارها السلمي، ولكن المتظاهرين رفضوا ذلك".

وأشار بيان صادر عن مجلس وزراء الكاظمي إلى "أهمية التزام المتظاهرين بالتظاهر السلمي والانضباط والتعاون مع القوات الأمنية، وهو ما سيمكّن صوت المتظاهرين من الوصول إلى مقصده، ويوفر لأبنائنا المتظاهرين أقصى الحماية والحرية في التعبير".

وبالتدقيق والتمحيص يمكن القول، أخيرا، إن المطلوب من الانتفاضة هو البقاء في حدود اللعلعة والصخب والكلام الفاضي، والقبول الضمني ببقاء الحال على حاله، بكل سوئه وخرابه وفساده، وبألاعيب المحتل الإيراني وسلاحه المنفلت الذي يتحكم في الدولة لوحده، وإبقاء الوطن العراقي وأهله مصدر تمويل مالي وسياسي قوي ووحيد تحتاج إليه إيران اليوم أكثر من حاجتها السابقة إليه.

ورغم أن مطالب المتظاهرين عادلة ومشروعة وواجبة الإصرار على تحقيقها، مهما غلت التضحيات، إلا أن الانتفاضة، إذا ما بقيت بنهجها الحالي لن تفلح في إحداث التغيير المطلوب، ولن تحقق شيئا من مطالبها، وستبقى رهينة وعود مصطفى الكاظمي التي لن يجرؤ على تنفيذ أي منها.

قفازات الكاظمي المخملية التي يستخدمها لتبريد خواطر المنتفضين منحت انتفاضتهم الجديدة مشروعية وجعلتها أخطر على احتلاله وعلى مستقبل ذيوله، وهو ما جعله أقل صبرا وأكثر ميلا إلى استخدام العنف لوقفها

ودون أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وتتضح معالم المعركة وحدودها وميادينها، ودون الحزم والحسم وإعلان رفض المنتفضين لأحضان مصطفى الكاظمي، ودون ضمّه إلى جبهة أعداء الإرادة الحرة الحقيقية للشعب العراقي، كأي واحد من جلاوزة الاحتلال الإيراني وأدواته الفاعلة، لن يكون للانتفاضة معنى، ولن تكون سوى فقاعة، حالها كحال أي ظاهرة صوتية عابرة لا تسمن ولا تغني من جوع.